وراء مواضعها وأسرارها

فى نظم القرآن الكريم

بقلم الدكتور
إبراهيم صلاح الهدهد

توطئـــة :

إن تدبر مطارح لفظة ما ، وإبصار مواقعها فى آيات الله هو من النصيحة لكتاب الله - عز وعلا - ولا سيما ما اشتجر الخلاف فى دلالته . وما من ريب فى أن تحرير معانى الألفاظ فى معجمات العربية قائم على إبصار مواضعها فى سياقات كلام العرب وآيات الله والحكمة ، وذلك لأمر ظاهر قاهر ، هو أن للسياق نورا - ولا سيما فى الكتاب العزيز - يشع فى دلالة اللفظ ، يصير اللفظ فيه لؤلؤة منظومة فى عقد من اللآلىء ، فإذا أبنتها عن موضعها انفرطت حبات هذا العقد ، وانطفأ وهج تلك اللؤلؤة . وهو كلام يحتاج إلى تبيان وإيضاح بالرجوع باللفظ إلى سياقاته .

يذكر كثير من الأئمة أن « وراء » فى القرآن تأتى بمعنى « بعد » ، « سوى » ، « خلف » ، « قدام » فلم لم تقع هذه الألفاظ فى موقع « وراء » ، وأى جناية على سياقة المعنى بوضع ما يقارب « وراء » فى موضعها ؟ والسبيل

إلى الجواب هو تدبر وإبصار سياقاتها فى الكتاب العزيز ، وهذه اللفظة التى نبحر بها فى الكتاب العزيز ، أو تبحر بنا هى ذات اعتلاق وثيق بقضية الأضداد عند اللغويين ، وقد قال بالأضداد ناس وأنكره آخرون . والذين قالوا بالأضداد عدوها ضربا من المشترك اللفظى ، ولا يمكن عندهم أن يجتمع الضدان فى الصدق على شىء واحد ، ولا بد من استعمال اللفظ ذى المعنيين المتضادين فى لغة واحدة والأضداد عندهم من سنن العربية ، والذين أنكروا زعموا أن فى إثبات الأضداد طعنا فى حكمة العرب وبلاغتهم ، وأن ذلك يفضى إلى كثرة الالتباس فى المحاورات والمخاطبات ، وتأولوا ما جاء على الوجه بالاتساع ، وأن يكون أحد المعنيين لحى من العرب والآخر لحى غيره ثم أخذ بعضهم عن بعض ، وحججهم عقلية كما ترى ويبقى كلامهم منقوضا حتى تقيمه البراهين اللغوية .

والذين قالوا بالأضداد كثر . ذكر ابن فارس أن الأضداد من سنن العرب ثم قال : وقد أنكرها قوم وليس بشىء محتجا بما روى عن العرب ، وقد ذكر السيوطى القائلين والمنكرين ، والذى يعنينا هو رد القائلين أدلة المنكرين ، فقد ردوا اعتراضهم بالالتباس فى المحاورات والطعن فى الحكمة والبلاغة ، بأن ذلك مدفوع بالحكومة إلى السياق فى ضبط دلالة معنى اللفظ ، وهذا شأن العربية الأعظم فى فقه المعنى قالوا : والجواب « أن كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطأ منه إلا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة الواحدة على المعنيين المتضادين ، لأنها تتقدمها ، ويأتى بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، فلا يراد بها فى حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد ، ومجرى حروف الأضداد مجرى الحروف التى تقع على المعانى المختلفة ، وإن لم تكن متضادة ، فلا يعرف المعنى المقصود منها إلا بما يتقدم الحروف ، ويتأخر بعده بما يوضح تأويله ، وفى ألفاظ كثيرة يطول

إحصاؤها ، تصحبها العرب من الكلام ما يدل على المعنى المخصوص منها ، وهذا الضرب من الألفاظ هو القليل الظريف فى كلام العرب »(١) وإبصار اللفظ فى سياقه هو الطريقة فى فقه المعنى وهو واجب شرعى قال الشاطبى :- رحمه الله - « المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ، وهذا معلوم فى علم المعانى والبيان ، فالذى يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره ، بحسب القضية وما اقتضاه الحال منها لا ينظر فى أولها دون آخرها ، ولا فى آخرها دون أولها ، فإن القضية ، وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة فى شىء واحد ، فلا محيص للتفهم عن رد آخر الكلام إلى أوله ، وأوله على آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع فى فهم المكلف فإن فرق فى النظر فى أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده »(٢) .

دلالة وراء عند اللغويين والمفسرين :

الذى يراه ابن جنى « أن همزة وراء » يجب أن تكون مبدلة من حرف علة ، لقولهم : تواريت عنك ، إلا أن اللام لما أبدلت همزة أشبهت الزائدة فى « ضهيأة » ، فكما أنك لو حقرت ضهيأة لقلت : ضهيئة ، فكذلك قالوا فى تحقير وراء : وريئة ، ويؤكد ذلك قول بعضهم فيها وريئة . . . وأما أبو على - رحمه الله - فكان يذهب إلى أن لامها فى الأصل همزة ، وأنها من تركيب (وراء) وأنها ليست من تركيب (ورى) واستدل على ذلك بثبات الهمزة فى التحقير على ما ذكرنا ، وهذا - لعمرى - وجه من

---

(١) انظر هذا الموضوع فى فقه اللغة وسر العربية ص ٢٤٧ ، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ١/٣٨٧ - ٤٠١ بتصرف ومقدمة فى فقه اللغة العربية واللغات السامية د/ البركاوى .

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة ٣/٣١٣

القول، إلا أنك تدع معه الظاهر والقياس جميعا ـ أما الظاهر ، فلأنها فى معنى توارت ، وهذه اللام حرف علة لا همزة، وأن تكون ياء واجب ، لكون الفاء واوا ، وأما القياس فما قدمناه : من تشبيه البدل بالزائد(١) ، وعلى هذا الظاهر جرت كتب اللغة ، فإن اللغويين يوردونها فى مادة (ورى) والمادة، دائرة حول معنى الستر ، فتوارى : استتر ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد غزوا ورى بغيره ، وذلك إذا ستر خبرا وأظهر غيره ، والورى : الخلق قال الخليل : الورى الأنام الذين على وجه الأرض فى الوقت ، ليس من مضى ولا من يتناسل بعدهم ، فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم.

ووراء : إذا قيل : وراء زيد كذا ، فإنه يقال : لمن خلفه نحو قوله (ومن وراء إسحق يعقوب(٢) ـ ارجعوا وراءكم(٣) ـ فليكونوا من ورائكم (٤)) ويقال لما كان قدامه نحو : (وكان وراءهم(٥)) وقوله : (أو من وراء جدر(٦)) فإن ذلك يقال فى أى جانب من الجدار ، فهو وراءه باعتبار الذى فى الجانب الآخر ، وقوله : (وراء ظهوركم(٧)) أى خلفتموه بعد موتكم ، وذلك تبكيت لهم فى أن لن يتوصلوا بما لهم إلى اكتساب ثواب الله تعالى به ، وقوله : (فنبذوه وراء ظهورهم(٨)) تبكيت لهم أى لم يعملوا به ، ولم يتدبروا آياته ، وقوله : (فمن ابتغى وراء ذلك(٩)) أى من ابتغى أكثر مما بيناه وشرعناه ، من تعرض لمن يحرم التعرض له فقد تعدي

---

(١) الخصائص ٢/٢٨١ ، ٢٨٢
(٢) سورة هود الآية ٧١
(٣) سورة الحديد الآية ١٣
(٤) سورة النساء الآية ١٠٢
(٥) سورة الكهف الآية ٧٩
(٦) سورة الحشر الآية ١٤
(٧) سورة الأنعام الآية ٩٤
(٨) سورة آل عمران الآية ١٨٧
(٩) سورة المؤمنون الآية ٧

طوره ، وخرق ستره ، (ويكفرون بما وراءه(١)) اقتضى معنى ما بعده .

وأكثر ما يكون مجيئها بمعنى خلف وقدام فى المواقيت من الأيام والليالى ، لأن الوقت يأتى بعد مضى الإنسان فيكون (وراءه) وإن أدركه الإنسان كان قدامه ، وشواهد هذه الاستعمالات من الشائع المستفيض فى كلام العرب أوردت المعاجم طرفا منها ، فلتراجع فى مواضعها ، وقيل : الوراء أيضا : ولد الولد ، وفى حديث الشعبى : أنه قال لرجل رأى معه صبيا : هذا ابنك ؟ قال : ابن ابنى ، قال : هو ابنك من الوراء ، قال لولد الولد : الوراء(٢) .

وقد نازع فى كونها من الأضداد ناس منهم الآمدى ، وهو يرد قول من يقول بأن « دون » من الأضداد مثل « وراء » بأن معنى « دون » التقصير عن الغاية ، وذلك يتأتى فى الخلف والأمام .

ثم يقول : وكذلك « وراء » إنما هى من المواراة والاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء : خلفك كان أو قدامك ، هذا إذا لم تره ولم تشاهده ، فأما إذا رأيته فلا يكون أمامك وراء ، وإنما قال لبيد :

أليس ورائى إن تراخت منيتى
لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

بمعنى أليس أمامى ، لأنه قال ذلك قبل أن يرى ويشاهد نفسه ، وقد لزم العصا وكذلك قول الله تعالى : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل

---

(١) سورة البقرة الآية ٩١

(٢) انظر : المفردات فى غريب القرآن للراغب واللسان والقاموس المحيط والمصباح المنير مادة (ورى) .

سفينة غصبا) قالوا : إنه كان أمامهم ، وصلح ذلك لأنهم لم يعاينوه ولم يشاهدوه(١) » .

وكلامه ظاهر فى أن قرائن الحال والمقال ، هى الفاصلة فى ضبط الدلالة ، وأن اللفظة بطبيعة وضعها اللغوى تطلق على المعنيين ، لذلك فقد أورد الشهاب الخفاجى كلامه السابق ، ثم بين أنه لا تعارض بين كلام الآمدى والبيضاوى ، قال : ـ رحمه الله ـ « وهذا لا ينافى قول المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ ولذلك عد من الأضداد ، لأن معناه أنه لما أطلق على « خلف وقدام » وهما ضدان عد ضدا تسمحا على عادة أهل اللغة وإن كان موضوعا لمعنى شامل لهما ، لأنه مصدر بمعنى الستر فيهما ، لكنه قد يستعمل بمعنى الساتر ، وقد يستعمل بمعنى المستور ، ولذا قال فى القاموس : هو من الأضداد أولا ، وقيل : إنه مضاف إلى الفاعل مطلقا ، لأن الرجل يوارى ما خلفه على من هو قدامه ، وما قدامه على من هو خلفه »(٢) .

فالقائلون بأن « وراء » من الأضداد ناظرون إلى المعانى التى تطلق عليها اللفظة ؛ وهى معان متضادة ؛ والرافضون ناظرون إلى أصل دلالة اللفظ ؛ وهما قولان متجاوران متحاوران ؛ وليسا متناقضين متنافرين عند التحقيق كما سيأتى بيانه .

وقد تأول أئمة التفسير لفظ « وراء » بمعنى أمام ؛ وبمعنى خلف فى آيات الذكر الحكيم ؛ وقد وجدت ذلك عندهم مطردا فيما استقريت من التفاسير(٣) ؛ بيد أنى وجدت العلامة ابن عاشور دون غيره من المفسرين

---

(١) الموازنة ١/١٨٢ ، ١٨٣

(٢) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ٢/٢٠٤

(٣) انظر فى الآيات الوارد فيها « وراء » الكشاف ، مفاتيح الغيب ، جامع القرطبى ، نظم الدرر للبقاعى ، وفتح القدير للشوكانى ، وتفسير أبى السعود ، =

يجعل « وراء » بمعنى خلف أبدا ؛ فإذا ما تظاهر السياق بأن معناها « أمام » جعل ذلك من باب الاستعارة(١) ، ثم عد ما دونته كتب اللغة بأنه من غلط اللغويين لأنه منقول عن المفسرين ؛ ولعمرى ما أدوات المفسرين ؟ فهم حفاظ اللغة ورواة الأحاديث يقول : ـ رحمه الله ـ « وبعض المفسرين فسروا (وراءهم ملك بمعنى أمامهم ملك ؛ فتوهم بعض مدونى اللغة أن وراء من أسماء الأضداد ، وأنكره الفراء . وقال : لا يجوز أن تقول للذى بين يديك هو وراءك برد شديد ، وإنما يجوز ذلك فى المواقيت من الليالى تقول : وراءك برد شديد . وبين يديك برد شديد . يعنى أن ذلك على المجاز . قال الزجاج : « وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة(٢) » والحق أن المنكرين هم البعض .

فاصـــلة :

الذى أبصرته فى مواقع الكلمة فى القرآن الكريم هو أن السياق إذا تظاهر على تحديد معنى « الخلف » فى وراء . فإنه يضبط الدلالة بقرينة تصرف اللفظ إلى هذه . تدبر : (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم(٣) ـ فنبذوه وراء ظهورهم(٤) ـ واتخذتموه وراءكم ظهريا(٥) ـ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم(٦) ـ قيل ارجعوا

= وتفسير البيضاوى ، والشهاب على البيضاوى ، وبحر العلوم للسمرقندى ، والفتوحات الإلهية للشيخ الجمل والصاوى على الجلالين ، تفسير ابن كثير وأرقام الصفحات مذكورة فيما يرد فى البحث فى كل موضع .

(١) انظر التحرير والتنوير فى الآيات الوارد فيها « وراء » .

(٢) التحرير والتنوير ١١/١٦ (٣) سورة البقرة الآية ١٠١

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٧ (٥) سورة هود الآية ٩٢

(٦) سورة الأنعام الآية ٩٤

فالتمسوا نورا(١) ـ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره(٢)) لو لم تكن « وراء » دالة على والأمام لما أضافها إلى الظهر ، وإنما أراد النظم أن يمحضها لهذه الجهة ، والذى يوقع ما أبصرته عندك موقعا حسنا أن لفظ (خلف) لم يضف للظهر أبدا ، ولم يطلب قرائن تضبطه بهذه الجهة لأنه منضبط بها ، واستعمل مقابلا لبين أيديهم فى أغلب المواطن(٣) وأظنك الآن تبصر ثراء « وراء » على خلف فى المواطن التى استخدمت فيها وراء ، فما موقع كلام العلامة ابن عشور عندك الآن ؟

والقرائن المقالية أبدا تضبط المراد وتحدده . والبديع أن القرآن فى سياقات استخدام « وراء » بمعنى « أمام » أو « قدام » يضع قرائن حالية ، ويترك القرائن اللفظية ، وذلك كقوله تعالى : (وكان وراءهم ملك ـ ومن وراءهم برزخ ـ من ورائه جهنم) .

فالقرائن الحالية والسياقية هى التى تغلب معنى الأمام والقدام فى « وراء » وهناك مواضع أخر لا ترى فيها قرائن لفظية ولا حالية ، وذلك عندما يريد القرآن الجهتين كما سيأتى بيانه ـ إن شاء الله ـ فى التحليل . فاحتياج وراء إلى قرائن فى الجهتين دال على وضعها لهما ، لذا ترد فى بعض مواطن الذكر الحكيم مرادا بها الجهتان ، وهو مما يجعل لها ثراء فى مواطنها على غيرها مما يقاربها ، على أنك تبصر أن الأشهر فى استخدام (وراء) هو معنى الخلف لذا تراه متواريا فى معناها عند إيرادها فى معنى الأمام .

---

(١) سورة الحديد الآية ١٣

(٢) سورة الانشقاق الآية ١٠

(٣) أبصر فى الكتاب العزيز : يونس ٩٢ ، البقرة ٦٦ ، ٢٥٥ ، آل عمران ١٧٠ ، النساء ٩ ، الرعد ١١ ، الأنفال ٥٧ ، الأعراف ١٧ ، مريم ٦٤ ، الأنبياء ٢٨ ، طه ١١٠ ، يس ٤٥ ، فصلت ٤٢ ، الحج ٧٦ ... إلخ .

وبعد الإبحار فى التأويل النظرى لـ « وراء » نبحر فى التأويل الجمالى بـ « وراء » فى الكتاب العزيز .

مواضع « وراء » فى القرآن الكريم :

ذكر الشيخ عبد الخالق عضيمة(١) أنهـا وقعت فى ثلاثة وعشرين موضعا ، وقد وجدناها أربعة وعشرين موضعا (البقرة ٩١ ، ١٠١ - آل عمران ١٨٧ - النساء ٢٤ ، ١٠٢ - الأنعام ٩٤ - هود ٧١ ، ٩٢ - ابراهيم ١٦ - ١٧ - الكهف ٧٩ - مريم ٥ - المؤمنون ٧ ، ١٠٠ - الأحزاب ٥٣ - الشورى ٥١ - الجاثية ١٠ - الحجرات ٤ - الحديد ١٣ - الحشر ١٤ - المعارج ٣١ - الإنسان ٢٧ - الإنشقاق ١٠ - البروج ٢٠) وقد أضيفت فى مواضعها هذه ، وجرت بمن فى اثنى عشر موضعا منها .

مقامات استعمال ، وراء ، فى القرآن الكريم :

استعملت وراء فى الذكر الحكيم فى مقامات كثيرة ، وتناولنا لها بحسب المقامات لاستكشاف وفائها بحق المقام والسياق الذى وردت فيه بحيث لا يفى بحق المقام الذى جاءت فيه سواها . ولا يؤدى دورها غيرها .

مقام الإعراض والغفلة :

وقد جاءت فى هذا المقام فى عدة مواضع الأول منها قوله تعالى : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون - البقرة ١٠١) .

السياق الذى أحاط بالآية الكريمة من بين يديها ومن خلفها يتظاهر على بيان إعراض اليهود عن نبيهم وكتابهم ، وكل أمر الله بعامة (وإذ قال موسى

---

(١) راجع دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ج ٢/٧١٢ ، ٧٧٨

لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل . . .) (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية . . .) (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم . .) (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة . .) وقصة البقرة العجيبة الشأن (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة .) وهى غاية فى البيان عن الإعراض ثم البيان عن تحريف الكتاب ، ثم نسبته إلى الله ، ثم نقض الميثاق وسفك الدماء ، ثم إخبارهم عن أنفسهم بغاية الأعراض (وقالوا قلوبنا غلف . . .) وهو منتهى التبجح وكانوا من قبل مبعث نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستنصرون به على الكافرين ، فلما بعث كفروا به ، ثم إعراضهم عن الإيمان به ، ورفضهم الإيمان بغير التوراة ، والحق أنهم يكفرون بالتوراة ، وآية ذلك قتلهم أنبياء الله ، والسياق يحشد الأخبار الكاشفة عن إعراضهم فى تواصل عجيب ، لو تأملت قوله : (أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم . . .) لوجدته مناديا على قوله تعالى من قبل (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون . . .) وقوله من قبل : (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل . . .) وقوله من قبل : (وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) إلى غيره فى هذا السياق البديع ، وقوله تعالى : (أو كلما عاهدوا . . .) عقد لأخبارهم السابقة وبدء لأخبار لاحقة ، فكل مامضى يفيد الإعراض عن أمر الله وراسه الإعراض عن التوراة ، وما لحق يفيد اتباعهم ماتتلو الشياطين . . هذه وجازة لابد من ذكرها فى تناول الآية الكريمة .

وقد وقع لفظ وراء « متعلقا » بقوله تعالى : (نبذ) « والنبذ : الطرح والإلقاء وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشىء فلا يعمل به . تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك ، ودبرا منك ، وتحت قدمك ، أى اتركه وأعرض

عنه »(١) وقال الشهاب : « النبذ أصله ما لا يعتد به كالنعل البالية »(٢) والكلام على المجاز ، فقد « شبه تركهم كتاب الله وإعراضهم عنه بحالة شيء يرمى به وراء الظهر ، والجامع عدم الالتفات وقلة المبالاة(٣) وذلك على سبيل الاستعارة ، ومجيئه على سبيل الاستعارة أعطى الكلام ثراء وخصوبة لأن الأئمة قد اختلفوا فى المفعول به (كتاب الله) أهو التوراة أم القرآن؟ وذلك آت من إجراء النبذ على الحقيقة لأن الواقع يأبى تأويل النبذ بالحقيقة ، لأنه يتعاند مع تأويل الكتاب بالتوراة ، فلم يطرحوها وراء ظهورهم على الحقيقة ، بل هم يعظمونها ويقرءونها إلى زماننا هذا ، ويتعاند مع القرآن أيضا ، لأنهم لم يصنعوا به هذا بل إنهم لم يقبلوه أصلا والذى يشهد به السياق - والله أعلم - أن المراد بكتاب الله التوراة رأسا وبالذات والقرآن ضمنا ، وأن الأسلوب - كما قال الصاوى رحمه الله - « كناية عن عدم العمل بما فى التوراة(٤) » إن إنكارهم صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتبديلها عدم إذعان لأحكام التوراة والسياق شاهد أنهم نبذوا التوراة ، ونبذوا القرآن وأنكروا الرسول - صلى الله عليه وسلم .

المهم أنك ترى هذه الاستعارة وقعت فى امتداد سياق كشف عن نبذ اليهود أمر الله ويجيب أبو السعود - رحمه الله - عن إعادة ذكر النبذ ، برغم وروده فى الآية الماضية . بما يكشف لنا أن الآية فاصلة بين حالين من أحوال اليهود ، الحال الأول حال تمام الإعراض ، والحال الثانى حال

---

(١) تفسير القرطبى ١/٥٣٧ ، ٣٨ ، ، الكشاف ١/٣٠٠ ، مفاتيح الغيب ٢/٢٧٥ ، فتح القدير ١/١١٩ ، بحر العلوم ١/١٤٠

(٢) الشهاب على البيضاوى ٢/٢١٣

(٣) السابق عن الطيبى ٢/٢١٤

(٤) الجلالين والصاوى عليه ١/٤٨

تمام الاتباع ، يقول رحمه الله ، وإفراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله ـ عز وجل ـ (أوكلما عاهدا . . .) لأنه معظم جناياتهم ولأنه تمهيد لذكر إتباعهم لما تتلو الشياطين ، وإيثارهم عليه(١) ، ألست تبصر معى أن اليهود واقفون .وقد طرحوا التوراة وراءهم ، وأقبلوا على ماتتلو الشياطين بكل قلوبهم ، ثم تأمل بدائع الذكر الحكيم فى المفارقة الدقيقة بين الاستعارتين المذكورتين فى الآيتين (نبذ) و (نبذه) ألا تراه قال فى الآية الأولى (نبذه) دون ذكر القيد الذى جاء مع الاستعارة الثانية (وراء ظهورهم) وكأنه بناء متتابع يقفك على جلال توليد المعانى فى الذكر الحكيم ، فالأولى تفيد الطرح وعدم الاعتداد ، أما الثانية فقد أفاد القيد الأول (وراء) النسيان ، وقد أفاد (ظهورهم) الإغراق فى النسيان ، فكانت الأولى تمهيدا للثانية ،فقد أفادت الأولى الترك والإعراض ، وأفادت الثانية الثانية ما أفادته الأولى مع الإغراق فى النسيان ، وذلك لأن «وراء» لا يغادر الستر معناها بعكس خلف ، فلو قال: خلف ظهورهم ، لما أضاف إلا تمام الطرح والترك المفاد من الاستعارة ، أما وراء فقد أضافت ما ذكرنا ، وهو المتناسب مع موقع الاستعارة وعلائقها بسوابقها ولواحقها ، وإنما يظهر هذا المعنى إذا عرفت أنه لا يقال وراء ظهرك إلا إذا كان يعقبك مباشرة بحيث لا تراه إلا إذا التفت إليه برأسك ، فإذا تمكنت من رؤيته دون التفات كان خلف ظهرك ولم يكن وراء ظهرك ، فإن الخلف من الممكن أن يكون خلفك بحذاء يمينك أو بحذاء شمالك(٢) لما أبان عن تمام الحفظ قال : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) الرعد ١١ . ولما أراد أن يبين عن إحاطته علما بالمخلوقين قال : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ـ البقرة ٢٢٠) ألا ترى إلى الشيطان

---

(١) تفسير أبى السعود ٦٤٢/١ بهامش الرازى .

(٢) انظر لسان العرب مادة (خلف) .

عندما أراد أن يكنى عن تمام إحاطته الإنسان بالغواية قال : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) - الأعراف (١٧) ولا تراها إلا فى حديث الله عن الشيطان عندما يصعد القرآن بيانه فى التحذير من غواية الشيطان يذكر جهتى اليمين والشمال ، ولكنك لا تراهما فيما مضى ، وذلك لأن معنى الخلف على ما ذكرت من كلام اللغويين يشمل الجهتين ضمنا ، لذا لم يقل : يعلم ما بين أيديهم وما وراءهم . ومما عرضت تستطيع أن تتبين لماذا اصطفى الذكر الحكيم « وراء » على « خلف » وغيرها مما يقاربها ، فإن التعبير بـ « وراء » متناسب مع تمام الإعراض المعبر عنه بالنبذ ، وتمام الإقبال المعبر عنه بالاتبـــاع فى قوله تعالى : (واتبعوا ما تتلو الشياطين . . .) فالله أعلم . ومما يزيدك بصرا بموقع هذه الاستعارة قول الشيخ الجمل « وهذا أشنع عليهم مما قبله حيث أفاد أنهم نبذوا كتابهم الذى كانوا قبلوه(١) » وقول السدى : « لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة ، فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوها لموافقة القرآن لها ، وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت ، فلم يوافق القرآن فهذا قوله تعالى : (ولما جاءهم رسول . . .)(٢) » وما جاء عليه التركيب يشمل كل لون من ألوان إعراضهم ، مما هو مذكور فى كتب التفسير ، لأن التركيب يقتصر على بيان إعراضهم ألا ترى إلى قوله تعالى : (كأنهم لا يعلمون) وهو تشبيه لهم بمن لا يعلم إذ فعلوا فعل الجاهل . فيجىء من اللفظ أنهم كفروا علم(٣) » ومما مضى تبين لك وفاء « وراء » بحق المقام :

الموضع الثانى : قوله تعالى : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/٨٤

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٣٤ ، القرطبى ١/٥٣٨

(٣) القرطبى ١ / ٥٣٩ ، فتح القدير ١ / ١١٩ ، الصاوى ١ / ٤٨

لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) - آل عمران ١٨٧) .

كن على ذكر من أن القرآن الكريم كله سياق واحد ، وأن هذه الآية امتداد لحديث القرآن عن اليهود فى سورة البقرة ، والسياق لتبيان إعراض أهل الكتاب عن أمر الله - عز وعلا - والملحوظ أن الآية مستهلة بالتذكير بأخذ الميثاق ، والميثاق أشد فى التأكيد من العهد ، وأخذ الميثاق هاهنا متعلق بالكتاب (التوراة) لذا فقد اصطفى القرآن الاستعارة الثانية من سورة البقرة ، لذا لو قال فنبذوه واشتروا . . . . لكان كلاما فاسدا . ثم إنه عبر بوراء ظهورهم ، تناسبا مع الأمر والنهى السابقين على فعلتهم ، ألا تراه أكد الأمر بالتبيين « لتبيننه » من بعد ما بين أنه ميثاق فجاء الكلام كله على لا حب التوكيد ، ثم عطف النهى الذى جاء فى صورة الخبر على الأمر ، وفى إيراد الخبر معربا عن النهى « إيماء إلى أنه من حقه ألا يكون منهم فيخبر به عنهم(١) » ، وهو ضرب من توكيد النهى بديع جاء على نهج قوله تعالى : (والمطلقات يتربصن بأنفسن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن . . . - البقرة (٢٢٨) » فكأنه قيل : « ليتربصن ولا يكتمن » فكما أكد الأمر بالتربص وأخرجه فى صورة الخبر ، أكد النهى عن كتمان ما خلق الله فى أرحامهن من حيض أو ولد ، فأخرجه فى صورة الخبر ، إذ الغاية فيهما الإبلاغ فى دعوتهن إلى الحرص على إيفاء الرجل حقه فى الرجعة »(٢) .

وإيراد الخبر معربا عن النهى فيما نحن فيه « إعراب لهذه الأمة عن أنه

---

(١) صورة الامر والنهى فى الذكر الحكيم د / محمود توفيق ٨٥.

(٢) السابق ٨٧

إذا ما كان هذا مطلوبا مرغوبا فيه من بنى إسرائيل فى زمان موسى فكيف هو فيكم فى زمان النبى ـ الخاتم الأعظم ـ صلى الله عليه وسلم »(١) .

وتأكيد النهى كما رأيت قوبل من أهل الكتاب بماهو علم فى الإعراض (وراء ظهورهم) فهو فى الحسيات مبين عن تمام النسيان ، وفى المعنويات كاشف عن تمام الكتمان ، لذا اصطفى القرآن وراء على خلف ، إذ هى لاتفيد تمام النسيان ، وإنما تفيد تمام الغفلة وليس ذلك متناسبا مع السياق الذى حدثتك عنه ، ومما يرشح ذلك أن الكتمان كان ذا مقابل (واشتروا به ثمنا قليلا) ، مما يفتح لنا أن الأمر بالتبيين غير النهى عن الكتمان ، فقد يكفى النبذ فى عدم التبيين ، وذلك لأن التبيين لكشف ما استتر ، والكتمان لإخفاء ما ظهر ، كأنهم مأمورون بتبيين ما استتر ومنهيون عن إخفاء ماظهر ، ومعلوم أن الثانى يحتاج إلى إجتهاد أكثر ، فكشف القرآن بالتعبير بوراء عن هذا الاجتهاد رغم أنه كفاء ثمن قليل ذمه الذكر الحكيم (فبئس مايشترون) من بعد ما مهد له بهذا التشبيه البليغ (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ـ آل عمران ١٨٥) ، ولن يعكر صفاء هذا الفهم أن يعود الضمير فى « لتبيننه » إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيكون النهى كتمان نعته عندهم ، وذلك هو الأعلى عندهم فى الاجتهاد فى الكتمان ، أو أن يكون عائدا للتوراة ، فإن نعت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحكامها وكثيرا ما يكون هذا الاختلاف ناظر إلى السياق فالقائلون بالرأى الأول ناظرون إلى قوله تعالى : (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب) والقائلون بالثانى : يعيدون الضمير إلى أقرب مذكور(٢) ، والذى يعنينا هو ما بيناه

---

(١) السابق ٨٦

(٢) راجع الكشاف ١/٤٨٦ ، بحر العلوم ١ / ٥٠٢ القرطبى ٣ / ٢٥٦٥ ، مفاتيح الغيب ٦ / ٤٤٣ ، البيضاوى ١ / ٣٢٢ والفتوحات الإلهية ٢ / ٦٥ ، والصاوى على الجلالين ٢ / ٣٣ ، والتحرير والتنوير ٤ / ١٩٢

من اتصال وراء بهذا المقام . بحيث لاينهض بدورها ها هنا سواها . والله أعلم .

الموضع الثالث : قوله تعالى : « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراء ظهوركم إن ربى بما تعملون محيط ـ هو ٩١ ، ٩٢) .

جاءت الآية الكريمة فى معرض تبيان إعراض الكافرين عن دعوة النبيين وإنما وقع هذا التركيب فى قصة شعيب خصوصا ، لخوف قومه من رهطه دون الله ، وذلك لم يقع فى قصة أخرى فى السورة الكريمة على حشدها قصص النبيين على الترتيب التاريخى وهى خصيصة لها دون سواها من سور الذكر الحكيم(١) . وظاهر من كلامهم فى الآية السابقة على شاهدنا أنهم تناسوا قوة الله ـ عز وعلا ـ وقدرته ، ولم يخشوا إلا بأس رهط شعيب عليه السلام ـ وهذا يدل على تمام الغفلة .

والذى نلحظه هو أن الفعل الذى يتعلق به (وراء) اختلف عنه فى الموقعين السابقين ، وإنما عبر فى الموضعين السابقين بالنبذ الذى أصله الطرح ، لأن الخطاب لأهل الكتاب ، وكان التوبيخ عليهم أن أخذوا التوراة ثم تركوها ولم يعملوا بها ، أما قوم شعيب ، فلم يقبلوا حتى يقال فيهم نبذوا ، لذا فقد توفر السياق ها هنا على بيان غفلتهم ، والأعلى أن يكون الضمير فى (واتخذتموه) عائدا على الله ، (واتخذتموه وراءكم ظهريا) استعارة أيضا : قال جار الله : (واتخذتموه . . ونسيتموه وجعلتموه كالشىء المنبوذ وراء الظهر ، والظهرى منسوب إلى

---

(١) راجع علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم دكتوراه للكاتب بكلية اللغة العربية بالقاهرة سورة هود من الباب الثانى .

الظهر(١) » وعلق الشهاب على قول البيضاوى المنقول عن الكشاف « يشير إلى أنه استعارة تصريحية شبه إشراكهم بالله وإهانة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنسيان والرمى وراء الظهر(٢) » ، وقد جوزوا أن يكون « ظهريا » مفعولا ثانيا ، والهاء مفعولا أول ووراءكم ظرف ، أو أن يكون « وراءكم » مفعولا ثانيا(٣) والجملة برمتها فى موضع الحال من اسم الجلالة أى الله أعز عليكم فى حال أنكم نسيتم ذلك »(٤) والأظهر أن « ظهريا » حال مؤكدة للظرف ، فيكون الظرف مفيدا النسيان ، ويكون الحال مفيدا الإغراق فى النسيان ، لأن السياق هاهنا يتظاهر على بيان الغفلة والإعراض ، ألا ترى إلى قولهم : (ما نفقه كثيرا مما تقول) ، والفرق بين إضافة (وراء) إلى المخاطب (وراءكم) وإضافتها إلى الظهر مباشرة (وراء ظهوركم) فرق كبير جدا فإنه فى الموضعين السابقين أضاف الظرف إلى الظهر ، ثم أضاف الظهر إلى ضمير المخاطبين (اليهود) فكان كشفا أنهم أعرضوا عن علم ، ورشح هذا الفهم قوله تعالى : (كأنهم لا يعلمون) فى البقرة ، والذى يظهر أن لإضافة تشبه الملك ، فيكون فى إضافة الظهر إليهم ، كشف عن علمهم بمطارح الكتاب ، أما المخاطبون هنا فمعرضون عن جهل لذا رأيت (ظهريا) معراة من الإضافة ، كأنهم أطرحوه وراء أى ظهر ، المهم عندهم أن يكون وراء فكان فى التعرية عن الإضافة كشف عن جهلهم بالمطارح . وشىء آخر هو أن الله قال فى اليهود (أوتوا الكتاب) فدل ذلك على تملكهم إياه ، فشاكل البناء فى الإعراض البناء فى الإعطاء وشىء آخر هو

---

(١) الكشاف ٢/٢٨٩

(٢) حاشيه الشهاب على البيضاوى ١٣١/٥

(٣) راجع الوجوة الإعرابية فى الفتوحات الإلهية ٢/٤١٨ ، ٤١٩ ، والصاوى ٢/٢٢٦

(٤) التحرير والتنوير ١٢/١٥٢

أن فى تركيب بنى اليهود بيانا عن حكمتهم فى إعراضهم وفى هذا التركيب بيان عن غباوتهم وجهلهم إذ لم يطرحوه وراء ظهورهم هم ، ربما ثابوا إلى رشدهم فوجدوه كفعل الحكماء بما لم يحتاجوا إليه ، لكنهم اطرحوه اطراح جهالة لذا كان من أمرهم ما كان من الإهلاك ، وكان من أمر اليهود ما نرى ونسمع ، وشيء آخر هو أنك لو قلت فى آيتى اليهود فنبذوه وراءهم ظهريا لكان كلاما فاسدا نابيا عن السياق فوجد أنه مخالف للواقع . أما مخالفته للسياق ، فإنه يتنافى مع أمرهم بالتبيين ونهيهم عن الكتمان ، وأما مخالفته للواقع فإن الواقع يشهد بأن التوراة فى أيديهم مع أنها محرفة ، وفرق بين اطراح العمل بالشيء . واطراح الشيء ذاته وفرق بين مدعى التوحيد والكافر بالواحد المجيد . ومما يقرب هذا الفهم أن الظرف يجيء مضافا إلى الضمير بعد إضافة الوراء إليه عند حديثه عن شيء يناسب ملكا لذاك الضمير (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم - الأنعام ٩٤) (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره - الانشقاق ١٠) فالكتاب كتابه ، والمال ماله وهذا فرق دقيق جداً فتدبره .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقام التهديد والوعيد :

وهو أكثر مقامات مجيء « وراء » فى الذكر الحكيم وقد جاءت فى مواطن متعددة : الموضع الأول : قوله تعالى : واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد - من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ - إبراهيم ١٥ ، ١٦ ، ١٧ » .

أكثر أهل العلم على أن (من ورائه) هنا بمعنى « من بين يديه » أو « من أمامه »(١) . قال أبو السعود : أى بين يديه فإنه مرصد لها واقف

(١) انظر بحر العلوم ٢/٢٠٣ ، الكشاف ٢/ ٣٧١ ابن كثير ٢/٥٢٦ =

على شفيرها فى الدنيا مبعوث إليهـــا فى الآخرة(١) ، وخالف فى ذلك ابن عاشور قال : « والوراء » : مستعمل فى معنى ما ينتظره ويحل به من بعد ، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول كالشىء الذى يكون من وراء المرء لا يشعر به ، لأنه لا يراه كقوله تعالى : (وكان وراءهم ملك ...) أى وهم غافلون عنه ، ولو ظفر بهم لأفتك سفينتهم »(٢) ولعمرى ألو كان الشىء امامك ولا تراه أتشعر به ؟ فوراء تطلق على ما كان متواريا عنك من الأمام ، وتطلق على ما كان متواريا عنك فى الخلف من أجل ذلك امتازت على (أمام وخلف) .

والذى تجب الإجابة عنه هو : لم اصطفى النظم الكريم « وراء » هنا على ما تأولها به الأئمه من الألفاظ ؟ والجواب أن الحكومة إلى السياق ، سياق السورة بخاصة وسياق القرآن بعامة .

وأول جهات النظر فى السياق أن نبصر المقصود بالتهديد (كل جبار عنيد) والجبار هو المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، والعنيد : المعاند للحق والمجانب له ، وقيل هو من العند وهو الناحية ، وعاند فلان أى أخذ فى ناحية معرضا ، والعنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحية أبدا كما قال أهل العلم(٣) ، فالمقصود بالتهديد معرض ، لا لخفاء الدليل على الحق ، وإسناد الخيبة إليه ترشح لهذا ، وإنما يقال خاب لمن كان الأمر ظاهرا بين يديه ، ولم يلتفت إليه ، لذا لم يكن النظم خسر أو هلك . والذى

= مفاتيح الغيب ٩ / ٣١٢ الصاوى على الجلالين ٢ / ٢٨٢ الفتوحات الإلهية ٢ / ٥١٩ ، البيضاوى ١ / ٥٢٧

(١) تفسير أبى السعود ٥ / ٣٢٩

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ٢١٠

(٣) انظر تفسير القرطبى ٥ / ٣٨٦ ، ٣٦٨٧

يرشح هذا أيضاً أن الجبار العنيد جاء فى مقابل من خاف الله والوعيد والذي شأنه هذا يكون موقف الحساب نصب عينيه ؛ ووعيد الله بين يديه. وذلك ليقينهم بأدلة عذاب الله الشاهدة على عذابه الغائب . وإهلاك الظالمين له أدلته الشاهدة ، انظر ما قبل هذه السورة (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين — آل عمران ١٣٧) (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ الأنعام ١١) أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . . — يوسف ١٠٩) .

وهذا ظاهر فى أن ذلك من عذاب الله الشاهد أمامهم وكان الواجب أن يكون يقينا على عذاب الله المستور أمامهم . والتعبير عن الأمام المستور بالوراء فى مقامات التحذير والخوف سائغ شائع عربية .

قال الشاعر :

ومن ورائك يوم أنت بالغه ... لا حاضر معجز عنه ولا بادى

وقول لبيد :

أليس ورائي أن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع(١) .

وفوق هذا فإن التحذير بالمستور هو الأعلى فى مقام التهديد من التحذير بالمشهود .

والذى يظهر من سياقات القرآن الكريم والسنة المطهرة . أن جهنم وإن كانت مستورة عنا . فهى عند الهالكين غير مستورة . بل إن تعذيبهم فى مشاهدتها . أليس يبصر الظالم مقعده من النار ، فيكون ذلك أشد فى تعذيبه وإيلامه . وذلك من جنس عمله . لما لم يوقن بعذاب الله الشاهد .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٥ / ٣٦٨٧

فيخشى عذاب الله الغائب تدبر قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ـ غافر ٤٦) .

وهو إن تدبرت شرح لقوله تعالى هنا : (ومن ورائه جهنم . . ومن ورائه عذاب غليظ) فيكون التعبير عن القدام بوراء فى هذا المقام وراء المستور بالنسبة لمخاطب حى . ووراء المشهود بالنسبة للميت . أرأيت لو قال من قدامه أيكون متناسبا مع المخاطبين ؟ ولو كان من خلفه لكان متناقضا مع الذكر الحكيم . ثم ماذا ترى أيعرض عليه مقعده من أمامه أم من خلفه؟ ومع هذا العذاب يطن العنيد . إذا ما شاهد عذاب يوم القيامة . أنه كان فى مرقد . فذلك قوله : ومن ورائه عذاب غليظ) وهذا المليظ من الأمام المستور بهذا التركيب البديع كل عذاب مشهود أمامك ينبغى أن يوقنك بالعذاب المستور أمامك فالعذاب الغليظ أمام المستور بالنسبة لهم أيضا .

تأمل كلمة الزمخشرى (من ورائه) « من بين يديه وهو على شفيرها(١) » فى نور آية غافر الماضية . وتأمل كلمة أبى السعود « أى بين يديه فإنها مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث إليها فى الآخرة(٢) » مع وعيهما رحمهما الله ـ أن المقام للتهديد والوعيد .

ألا يمكن أن نقول مع كل ما مضى : إن التعبير بكلمة (وراء) فيه تناسب مع المتكلم الله عز وعلا ـ فكل شىء بالنسبة إلى علمه خلف معروف على الوجه الأتم . فتكون وراء بمعنى « خلف » بالنسبة إلى الذات العلية . وتكون بمعنى (قدام) بالنسبة إلينا وإلى علمنا . مع أن هذا يقين عقدى . إلا أنه بيان أسلوبى . على أنى أحس فوق هذا أن فى التعبير بـ (وراء) هنا إيحاء بتصور المستور عنا من العذاب بآيات الترهيب فى الذكر الحكيم .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٧١

(٢) أبو السعود ٥ / ٣٢٩ بهامش الرازى .

الموضع الثاني : قال تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) (المؤمنون ٩٩ - ١٠٠) .

الآية كما ترى واردة بعد آية الاحتضار ، وهو سياق متواصل مع قوله تعالى : أئذا متنا وكنا ترابا . [إلى قوله] : إن هذا إلا أساطير الأولين) كما قال القرطبي ، وقال رحمه الله : ودلت الآية على أن أحدا لايموت حتى يعرف اضطراراً أهو من أولياء الله أم من أعداء الله ؛ ولولا ذلك لما سأل الله الرجعة (١) .

والخطاب - كما ترى - لمنكري البعث وهو من الأمام المستور ؛ فإذا ما كانوا في مقام الاحتضار آمنوا وأيقنوا وأبصروا أمامهم ما كانوا ينكرون ؛ فكان مشهودا أمامهم مستورا أمامنا ؛ وقد تأول الأئمة (وراء) هنا بمعنى أمام(٢) وقد اصطفاها القرآن الكريم دون غيرها من الكلمات المتقاربة ؛ لتناسبها مع حالهم وحالنا وحال الأحياء من حول المحتضرين والملحوظ أن (من ورائهم) خبر مقدم و (برزخ) مبتدأ مؤخر ؛ والبرزخ هو مابين الدنيا والآخرة . أو هو حاجز بين ماهو فيه وبين الدنيا والقيامة مستمر لايقدر أحد على رفعه وعند السمرقندي يقال : لكل حاجز بين الشيئين برزخ . ويقال هو بين النفختين . وقال الحسن : القبر بين الدنيا والآخرة . وكل ذلك دائر حول الحجز والستر . فالمتناسب معه وراء . لأنه يحجز الميت فلا هو يرجع إلى الدنيا . ولا هو يذهب إلى البعث . وآية ذلك قوله تعالى بعد (فإذا نفخ في الصور . . .) .

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ٦ / ٤٦٨٣

(٢) انظر بحر العلوم ٢ / ٤٢١ ، الكشاف ٣ / ٤٢ ، الصاوي ٣ / ١٢٥ ، ابن كثير ٣ / ٢٥٥ ، مفاتيح الغيب ١١ / ٤٠٦ ، والشهاب على البيضاوي ٦ / ٣٤٦

قال البقاعي ـ رحمه الله ـ في « من ورائهم » « من خلفهم ومن أمامهم محيط بهم »(١) .

وكذا قال القرطبي « من أمامهم وبين أيديهم »(٢) وذلك نظرا لطبيعة دلالة المسند إليه لذا وقعت (وراء) هنا ناهضة بالمعنيين على بابها من المواراة والستر ، فكان ذلك دالا على الإيجاز وعند ابن عاشور « أن الوراء هنا مستعار للشيء الذي يصيب المرء لامحالة وينالـه وهو لا يظنه يصيبه شبه ذلك بالذي يريد اللحاق بالسائر فهو لاحقه »(٣) .

الموضع الثالث : قوله تعالى : (وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) الجاثية ٩ ، ١٠ .

المقام مقام تهديد . ومع ذلك فإنك تجد أهل العلم(٤) يفسرون وراء هنا بـ (قدام) وهذا يعني أن الأنسب بالمقام أن تفسر بذلك ، وذلك غير من جعلها في الخلف على الحقيقة ثم جره ذلك النظر إلى إجرائها على الاستعارة ، قال ابن عاشور : وفي قوله (من ورائهم) تحقيق لحصول العذاب ، وكونه قريبا منهم ، وأنهم غافلون عن اقترابه كغفلة المرء عن عدو يتبعه من ورائه ، ليأخذه ، فإذا نظر إلى أمامه حسب نفسه آمنا ، فني الوراء استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة . . . ومن فسرو (وراء) بـ (قدام) فما رعى حق الكلام(٥) والأعلى أن من فسره بالخلف فما رعى حق المقام ولوكان النظم

---

(١) نظم الدرر ١٣ / ١٨٦

(٢) تفسير القرطبي ٦ / ٤٦٨٤

(٣) التحرير والتنوير ١٨ / ١٢٤

(٤) بحر العلوم ٣ / ٢٢٣ . الكشاف ٣ / ٥١٠ ، مفاتيح الغيب ١٤ / ١٧١ ، القرطبي ٩ / ٦٢٠٩ ، الصاوي ٤ / ٦٨ ، الفتوحات ٤ / ١١٤

(٥) التحرير والتنوير ٢ / ٣٣٣

على ما يريد ـ رحمه الله ـ لكان . ومن خلفهم جهنم دون هذا الإشكال ، ولئن كان كما ذهب ـ رحمه الله ـ فلماذا عبر عن (خلف) بـ (وراء) أليس كذلك لأن (وراء) خلف مستور على ما ذكرنا من أصل معناه .

والظاهر أن الآية جارية على التهديد من أمام مستور ، وذلك هو الأولى باخذ الحذر والألصق بمقام النصح ، وشيء آخر هو أن المقصود بالتهديد فى الآيات السابقة (ويل لكل أفاك . . .) يجعل آيات الله وراءه ظهريا على حد ماعرضت فى قوم شعيب كان المعنى : إذا تتلى عليه آياتنا اتخذها وراءه ظهريا ومن ورائه جهنم . . . هذا ما ينير به السياق ـ فيما أرى ـ وشيء آخر هو فى جملة (ولا يغنى عنهم ما كسبوا . . .) وهى فى قوة قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) . . (الأنعام ٩٤)

فالملحوظ أنه مقام تهديد مع التحسير . تهديد بما هو آت ، وتحسير على ما فات ، والآفة أن القائلين بأنها بمعنى (خلف) يرون ذلك ألصق بالتهديد ، والأمر كما بينت لك . ثم كشف أبو السعود والبيضاوى عن أن (وراء) ههنا سواء أولت بمعنى خلف أو قدام فإن سواها لا يقوم مقامها ، لأنها وفت بحق المقام والسياق ، وتلك طريقة القرآن الكريم العليا فى تكثير المعنى وتقليل اللفظ . قال البيضاوى : « من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها ، أو من خلفهم لأنها بعد آجالهم » (١) وفى كلتا الحالتين هى متوارية عنهم . وقال أبو السعود : « أى من قدامهم ؛ لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم ؛ أو من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا ؛ فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام(٢) » وقال ابن كثير ، أى كل

---

(١) البيضاوى ٢ / ٣٨٠

(٢) أبو السعود ٧ / ٤٨٢

من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة(١) » .

فكما ترى ، جاءت هذه الكلمة لتوائم كل التأويلات ، ولكل مستند فى السياق إما بقرينة لفظية ، وإما بقرينة حالية ، والذى أطمئن إليه أن (وراء) هنا قدام مستور ، وهو الأولى بمقام التحذير ، والله أعلم .

الموضع الرابع : قوله تعالى : (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) (الانسان ٢٧) .

تأول العلماء(٢) « وراء » هنا بمعنى « قدام » ، أو بمعنى « خلف » ، وظاهر كلامهم الاختلاف وليس كذلك ولكن لما وجد فى السياق مايعين على القول بالمعنيين وقع كلامهم على حسب جهة النظر ، وليسوا من أهل الغفلة حتى يوقعوا المعنيين المتضادين على اللفظ الواحد من جهة واحدة ، قال الزمخشرى : (وراءهم) « قدامهم ، أو خلف ظهورهم لايعبأون به » (٣) وشرحه أبو السعود بقوله : « أى أمامهم لايستعدون » أو ينبذون وراء ظهورهم » (٤) وهو كما ترى يبين أن الترك على وجهين إما بعدم الاستعداد وإما بشدة الإعراض ، فعل من يطرح الشىء وراء ظهره على ما عرفت فى آيتى أهل الكتاب فى البقرة وآل عمران ، والحق أن التركيب يحتمل كل هذه التاويلات فلو أراد النظم الحكيم أن يمحضها لمعنى (خلف) لكان : ويذرون وراء ظهورهم يوما ثقيلا . ولو أراد أن يمحضها لمعنى قدام ، لكان : ويذرون وراءها يوما ثقيلا ، ثم إن فى السياق مايسمح بان تكون بمعنى خلف قدام ، لذا وجدنا العلماء هنا يوردون المعنيين .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ١٤٨

(٢) بحر العلوم ٣ / ٤٣٣ ، تفسير ابن كثير ٤ /٤٥٨ ، البيضاوى ٢/٥٢٨ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٤٦٢

(٣) الكشاف ٤ / ٢٠٠ .

(٤) تفسير أبى السعود ٨ / ٤٠٣

فمما يعين على جعل الوراء بمنى الخلف ، هو الجهة المقابلة فهم يستقبلون العاجلة ويستدبرون الآخرة ، وذلك كشف عن قلب أوضاعهم وغفلتهم فى تفكيرهم ، وهو وجه جيد يعين النظم عليه ، وربما يعظم هذا عندك إذا نظرت إلى مقابلهم (إن الأبرار ... يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره ... إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا - من ٥ — ١١) فكان نظرهم متعاكسا مع نظر هؤلاء المحبين للعاجلة ، والبذل هو رأس الأمر فى الصالحات المذكورة فى السورة ، فهؤلاء يخافون وراءهم يوماً ثقيلا - وهؤلاء يذرون وراءهم يوما ثقيلا . فالأسلوب جار على طريقة التهديد بالنظر إلى كلية السورة . فالذى فسر الوراء بالخلف نظر إلى تصرفاتهم وأعمالهم لهذا اليوم ، والذى فسر الوراء بالأمام نظر إلو أن هذا اليوم لم يقع . ومما يعين على تأويله بمعنى قدام أن العاجلة يقابلها الآجلة ، فكأنهم يحبون عاجلا ويذرون آجلا غفلة وإعراضا ، ففاد التركيب أن اليوم المتروك الاستعداد له فى الآجلة ، فهم يحبون ما أمامهم على حقارته ، ويتركون ما بعده على نفاسته ، وربما يقوى هذا عندك أن (وراء) حال من (يوما) مقدم عليه لأنه نعت نكرة قدم عليها . وقرائن السياق متظاهرة على أن « يوما » أمام ، ومادام فى السياق ما يؤيد الجهتين ، فلا حاجة إلى جعل اللفظ من المجاز ، كما قال ابن عاشور « ومثلوا بحال من يترك شيئا وراءه فهو لا يسعى إليه وإنما يسعى إلى ما بين يديه(١) » فتكون بمنى الخلف كاشفة عن نظر المحبين للعاجلة إلى هذا اليوم ، وبمعنى قدام كاشفة أيضا عن غفلتهم ومتناسبة مع القرينة الحالية ، ومن ثم لم يصلح سواها أن يقع موقعها ، لذا أورد الفخر الرازى سؤالا ، لم قال : وراءهم ، ولم يقل : قدامهم ؟ الجواب من وجوه :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ٨ ٤

أحدها : لما لم يلتفتوا إليه وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم.

وثانيها : المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف .

ثالثها : أن « وراء » تستعمل بمعنى قدام(١) . وقال القرطبي « أي بين أيديهم ... وقيل : وراءهم أي خلفهم ، أي : ويذرون الآخرة خلف ظهورهم ، فلا يعملون لها(٢) فتكون غفلتهم غفله الرجل عن الشيء يأتيه من خلفه ، ويكون عدم اعتدادهم بشيء مهم بين أيديهم غفلة أيضا ، وكان يجب أن تكون في المقام الأول في التصنيف ولكننا وضعناها هنا بالنظر إلى سياق السورة الواردة فيها الآية ، لأنها ناظرة إلى قوله (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا - الإنسان) .

الموضع الخامس : قوله تعالى : (بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط - البروج ١٩ ، ٢٠) .

تأمل كيف وضع الذكر الحكيم الكفار في محيط من التكذيب من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فكان الجزاء من جنس العمل ، فكان أن أحيطوا ببطش الله الشديد (إن بطش ربك لشديد - البروج ١٢) وهو مع شدته محيط ، قال ابن عاشور رحمه الله - « وقد قوبل جزاء إحاطة التكذيب بهم بإحاطة العذاب بهم جزاء وفاقا ، خبر مستعمل في الوعيد والتهديد(٣) » ، قال الزمخشري : « والله عالم بأحوالهم وقادر عليهم ، وهم لا يعجزونه ، والإحاطة بهم من ورائهم مثل لأنهم لا يفوتونه ، كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به(٤) » ، ولخصه البيضاوي بقوله :

---

(١) مفاتيح الغيب ١٦ / ٨٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧١٧٦

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٢

(٤) الكشاف ٤ / ٢٤٠

« لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط المحيط(١) » وقال أبو السعود « تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط(٢) » والذى أبصر أن الأسلوب حقيقة ، لأن الكل فى قبضة الله علما وقدره ، والذى يعنينا هو بيان فضل وراء فى هذا التركيب ، الذى يفهم من الزمخشرى والبيضاوى وأبى السعود أن الوراء بمعنى الخلف والقدام هنا ، أى أنه يسترهم بإحاطته من كل جانب ، وهى على بابها من المواراة والستر ، أى أنهم يكونون وراء إحاطة الله -عز وعلا- حيثما طلبتم ، وهذا أولى من أن يقال : المراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم فى قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه فلا يجد مهربا(٣) » لأن التعبير بها على بابها جعل الإحاطة بهم من كل جهة . وهو أولى مما قاله ابن عاشور من أو الآية « تمثيل لحال انتظار العذاب إياهم ، وهم فى غفلة عنه بحال من أحاط به العدو من ورائه ، وهو لا يعلم حتى إذا رام الفرار والإفلات وجد العدو محيطا به(٤) » لأن فيها معنى المغافلة على هذا التاويل ، وذلك متناف مع ما مضى من وصف البطش بالشدة ، ومتوافق مع ماوصفهم به القرآن من التكذيب ، لذا قال القرطبى : أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون والمحـــاط به كالمحصور(٥) » ، والمحصور يحاط به من كل جانب ، وفوق هذا فإن المتناسب مع الإحاطة بمدلولها اللغوى هو وراء لا غيرها من خلف أو قدام ، وليست هنا قرائن تضبطها بالخلف ولا بالقدام ، فكانت على بابها من الاتساع متناسبا مع الإحاطة ، وما تدل عليه من الاتساع .

---

(١) البيضاوى ٢ / ٥٥١ (٢) أبو السعود ٨ / ٥٢٧

(٣) مفاتيح الغيب ١٦ / ٣٢٨

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٢

(٥) تفسير القرطبى ١٠ / ٧٣٣٥

مقام التحسير والتبكيت :

ورد ذلك فى ثلاثة مواضع فى الذكر الحكيم :

الموضع الأول : قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون — الأنعام ٩٤) .

الآية السابقة على الآية هى قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون [إلى قوله] اليوم تجزون عذاب الهون ـ الأنعام ٩٣) والمقام مقام تحسير وتنديم ، وقد بدأه بقوله : (ولقد جئتمونا فرادى) فكان قوله : (كما خلقناكم أول مرة) شرحا لهذا الانفراد ، ثم جاء من بعد بقوله : (وتركتم ...) بيانا للمقصود من هذا الخبر ، وهو ذروة التحسير والتنديم فى هذه الآية وقد وقع وراء متعلقا بـ (تركتم) وفيه تهكم بهم ، وكأنهم تركوه باختيارهم ، إلماعا إلى ما كانوا يبصرون به فى الدنيا من إمكان إتيانهم بمالهم غير فرادى بطريق تقديم الصالحات ، وقد جاء (وراء) مضافا إلى الظهر والظهر مضافا إلى المقصودين بالتحسير من بعد ما نسب الترك إليهم ، إلماعا إلى أنهم اجتهدوا فى ستره من خلف ظهورهم ، لغاية أن جعلوه بمثابة ما لا سبيل إليه ، ولو قال خلف ظهورهم ، لأظهر إمكان حصولهم عليه ، أبصر قوله تعالى : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ـ النساء ٩) لأن القرآن هاهنا يوحى إليهم بقصور ترك الذرية فهم يتصورونهم خلفهم ، ولكنهم يرونهم ، لذا لو قال من ورائهم ما لاءم السياق .

المهم أن لوراء فائدة كبيرة فى إظهار التحسير ، ولا سيما فى نسبة الترك إليهم ، أى نبذتم وراء ظهوركم هذا اليوم بالمال باختياركم ، والآن تركتم المال وراءكم رغم أنوفكم .

يقول الفخر رحمه الله ـ « فبقيت الأموال التى اكتسبها، وأفنى عمره فى تحصيلها وراء ظهره، والشىء الذى يبقى وراء ظهر الإنسان، لا يمكنه أن ينتفع به، وربما بقى منقطع المنفعة معوج الرقبة، معوج الرأس بسبب التفاته إليها مع العجز عن الانتفاع بها، وذلك يوجب نهاية الخيبة والغم والحسرة(١)، وقد جعل أبو البقاء الجملة حالا من الواو فى (جئتمونا) فيصير ترك ما خولوه هو محل التنكيل(٢)، وكونه وراء الظهر، يوهم بالاقتراب ويبعد فى التنكيل، وهو ظاهر فى إضافة الظهر إليهم.

الموضع الثانى: قال تعالى: « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ـ الحديد ١٣).

الذين قالوا: إن (وراء) لا يكون إلا خلف الشىء، قالوا: إن وراء هنا اسم فعل فيه ضمير فاعل، أى ارجعوا ـ ليس ذلك مقيسا ولا مسموعا عند العرب ـ قالوا: لأن هذه ظرفا لا رجعوا لا يكون وراءه كبير فائدة. وذلك لأن الرجوع لا يكون إلا إلى وراء، فماذا يقال فى قوله تعالى: (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ـ الأنعام ٣٨)(٣)، ثم إن كلام أهل العلم دال على أن « وراء » فى التركيب نصت على مكان التماس النور، وهذا يعنى أنه لا يجوز أن يقال: (قيل ارجعوا فالتمسوا نورا) وذلك لأمر ظاهر، هو فوت النص على المكان.

---

(١) مفاتيح الغيب ٦ / ٤٤٣

(٢) الفتوحات الإلهية ٢ / ٦٥، الصاوى ٢ / ٣٣

(٣) انظر الفتوحات الهية ٤ / ٢٨٩، التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٨٣، صورة الأمر والنهى د / محمود توفيق ٥١ وما بعدها.

وذلك مخل بمقام التحسير والتبكيت الذى يسير السياق على لاحبه ، بل إن عنده اسم فعل على ما زعموا ، لجعل « وراء » تأكيدا لا رجعوا يفيد أنه يمكن أن يقال : (قيل التمسوا وراءكم نورا) وذلك قد يخرج الكلام إلى الإرشاد لما فى معنى الالتماس من الرغبة فى نجاة المخاطب ، وهذا غير (ارجعوا) فى أنه يفيد انتفاء الرغبة فى نجاتهم ، وليس التأكيد هنا على لاحب قولنا : رجع القهقرى كما قال ابن عاشور(١) فالقهقرى وصف للرجوع ، كما أن الوراء تنبيه إلى مكان الرجوع ومحله ، وسواء كان تعلق « وراء » بالتمسوا أو ارجعوا ، فإن ذلك كله يغرى بالتماس النور ، ويعلى من الإطماع فى طلبه ، وأهل العلم فى تحديد محل وراء على قولين(٢) ، وهما متجاوران ، الذين قالوا إن ذلك فى الموقف نظروا إلى سياق السورة الكريمة ، والذين قالوا : إن ذلك فى الدنيا أى ارجعوا إلى الدنيا نظروا إلى سياق القرآن الكريم كله ، وهو فيما أرى - أبعد فى التحسير ، ففى السورة : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به - ٢٩) . وفى موضع آخر « واتبعوا النور الذى أنزل معه - الأعراف ١٥٧) وفى موضع آخر (ولكن جعلناه نورا - الشورى ٥٢) ، وهو ما يرجح الفرق بين خلف ووراء ، وعد وراء هنا من الخلف المستور هو الأعلى - فيما أرى - ألا تراه قال فى المؤمنين (يسعى نورهم) فأضاف النور إليهم ، لإتقانهم سببه فى الدنيا ، ولما أضاف النور إلى المنافقين ، أى ارجعوا إلى وراء خاص بكم ، فكان محل التماس النور فى هذا المقام فى الخلف المستور سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى

---

(٢) التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٨٣

(٣) انظر الكشاف ٤ / ٦٣ ، البيضاوى ٢ / ٤٥٤ ، والقرطبى ٩ / ٦٦٤٨ ، بحر العلوم ٣/٣٢٥ ، مفاتيح الغيب ٨/١٢٩ ، أبو السعود ٨/١٢٨ بهامش الرازى ، ابن كثير ٤ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، الصاوى على الجلالين ٤ / ١٧٢

الآخرة ، ثم إن فى الوراء فى الآخرة إطماعا فى الرغبة ، لأن الوراء هو مما يلى الظهر ، وهو تنصيص على المكان أكثر من خلف ، وكل هذه التأويلات تتناغى مع هذا المقام .

الموضع الثالث : قال تعالى : (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ـ الانشقاق ١٠ ، ١١ ، ١٢) .

حاول العلماء التوفيق بين ما هنا وما فى الحاقة فقالوا : المراد أنه تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ، وقيل : تخلع يده اليسرى من وراء ظهره ، وقيل : يتحول وجهه فى قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك ، وقيل : يحتمل أن يكون بعضهم يعطى بشماله ، وبعضهم يعطى من وراء ظهره(١) ، والذى أبصره أن التأويل فى الكيفية ضرب فى غيهب الغيب ، ولكن الذى ينبغى إبصاره ، هو أن ما قالوه يفيد أن ما فى الانشقاق أبعد فى التحسير والتحقير مما فى الحاقة ، وذلك لأمر ظاهر ، هو أن « الانشقاق » تشبه أن تكون تفصيلا لما أجملته الحاقة : (وانشقت السماء ...) ، أما الانشقاق فهى مفتتحة بالحديث عن انشقاق السماء ، من بعد وقوع السورة بعد التكوير والانفطار ، ثم إن الجهة المقابلة فى الانشقاق (فسوف يحاسب حسابا يسيرا دالة على الحساب العسير لأهل الشمال ، والذى أبصره أيضا أن القرآن فى الانشقاق يتصاعد بيانه لتحسير أصحاب الشمال كأن التركيب فى السورتين : فأما من أوتى كتابه بشماله وراء ظهره ... فأضاف فى الانشقاق النص على موضع الكتاب ؛ وبـ (وراء)

---

(١) انظر بحر العلوم ٣ / ٤٦١ ، الكشاف ٤ / ٢٣٥ ، مفاتيح ١٦ / ٢٩٧ ، القرطبى ١٠ / ٧٣٠٩ ، البيضاوى ٢ / ٥٤٨ ، ابن كثير ٤ / ٣٨٩ ، أبو السعود ٨ / ٥١٢ ، الفتوحات ٤ / ٥١٠ ، الصاوى ٤ / ٣٠٢ ، والتحرير والتنوير ٣٠ / ٢٢٣

مضافة إلى الظهر وفيها من الاستتار ما ليس فى الخلف ، وهو مما يعنى أنهم لا يبصرون الذى يناولهم الكتاب ، بل يتلمسونه بأيديهم ، لا يتاح لهم النظر إليه قبل امتداد اليد إليه ، إمعانا فى التحسير والتبكيت ، والذى يعظم ذلك عندك أن الانشقاق واقعة بعد الحاقة فى ترتيب المصحف ، وفى ترتيب النزول أيضا ، ودائما يتعانق الترتيبان فى التظاهر على بيان المعنى ثم الحظ تفصيل الثبور فى الحاقة ، والإشارة إليه فى الانشقاق ، فلا ينبغى للحقير أن يشرح فى الانشقاق اقتضاء للمقام .

مقام التشديد فى التحريم والنهى :

الموضع الأول : قال تعالى : (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ـ النساء ٢٤) .

سياق الآية يتظاهر على التشديد فى التحريم ، وقد وقعت (وراء) فى سياق تحريم وتحليل ، وهما أمران أحاط بهما كثير من وسائل التشديد ، تأمل قوله : (كتاب الله عليكم) وهو مصدر مؤكد « أى كتب الله عليكم كتابا وفرضه فرضا(١) وقد توسط بين التحليل والتحريم » للمبالغة فى الحمل على المحافظة على المحرمات المذكورة(٢) ، وأضاف وراء إلى اسم الإشارة ، للتذكير بما فى كل واحدة من حكم الحرمة ، وفى الآيتين عدة أستار ستر التحريم وستر (والمحصنات) وبعد وراء ستر (محصنين) وقد تأول العلماء (وراء) هنا بـ (سوى)(٣) وعند ابن عاشور هى بمعنى غير

---

(١) الكشاف ١ / ٥١٨

(٢) أبو السعود ٣ / ٢٧٩ بهامش الرازى .

(٣) انظر بحر العلوم ١ / ٣٤٥ ، مفاتيح الغيب ٥ / ١٤٠ ، القرطبى ٢ / ١٧٨٩ ، =

أو دون(١)، والذى أبصره أن إيثار (وراء) يلائم السياق والمقام ، لما فيها من معنى الاستتار ، وهو مما يحدو بالأمة نحو يفاع الطاعة ، فليس المقصود تحريم النكاح فحسب ، وإنما المقصود مع ذلك تحريم النظر بشهوة إلى من يحرم ، ومن يحل من النساء ، فبرغم أن الكل أمام منظور ، إلا أن الشرع يلزم أن الكل أمام مستور ، سوى من نظرا بتغاء إحصان عند توفر المال معه (أن تبتغوا بأموالكم محصنين) وهو مما يلزم الطائعين لله غض البصر ، وتنزيهه عما حرم الله ؛ وإيحاء بما يجب أن يلقيه الزواج من ستر البصر (محصنين) فهذا موقع وراء ؛ وتناغيها مع ما بين يديها وما خلفها من آيات الله .

الموضعان الثانى والثالث : قال تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ـ المؤمنون ٥-٧ ؛ المعارج ٢٩-٣١) .

وقعت هذه الآيات فى هاتين السورتين ؛ وسورة المعارج بعد (المؤمنون) ترتيباً مصحفياً ونزولياً .

ولئن كان حديث « المؤمنون » عن فلاح المؤمنين ؛ فإن حديث المعارج مصدر بميقات هذا الفلاح . أى قد أفلح المؤمنون يوم تعرج الملائكة ... فالله أعلم ؛ والسياق للطائعين لله المتواضعين لشرع الله ؛ تأمل هذا القيد الذى لا نظير له فى سورة أخرى (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ؛ وهو إيماء إلى أن الحديث عمن امتنع عن الكبائر قطعا وعن الصغائر اجتهاداً أو تسديداً ؛ فقد أبان السياق بعد أنهم ألقوا بستر الشرع على الفرج

= ابن كثير ١ / ٤٧٤ ، البيضاوى ١/٢١٣ ، فتح القدير ١ / ٤٤٩ ، الفتوحات الإلهية ١ / ٣٧٢ ، الصاوى ١ / ٢١٣

(١) التحرير والتنوير ٥ / ٧

بالأزواج وما ملكت الأيدى ، واستجابوا لأمر الله ولم يتعدوه . وهم لا يبتغون وراء ذلك محلا ولا وسيلة ، لأنهم ليسوا بعادين، كما يفيده مفهوم ما بعده . فقد جعل النظم الكريم « المستثنى حدا أوجب الوقوف عنده ، ثم قال : فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه ... فأولئك هم الكاملون فى العدوان المتناهون فيه(١) » وحذف مفعول ابتغى ألمع إلى تحريم كل ما يؤدى إلى إفراغ الشهوة فى غير حلها اقترابا بنظر وغيره ، وطريقة بلواط وغيره ، وتعلقت (وراء) بابتغى فألقت سترا على الحلال ، وألقت سترا على الحرام ، والعادى على أيهما خارق للستر ، ثم تأمل مايفيد التركيب من أن الخارق لهذا الستر متناهى الكمال فى العدوان ، ومفهومه أن حافظ الستر متناهى الكمال فى الحفظ ، كما يفهم من كلام الزمخشرى هكذا أضاءت (وراء) السياق ، وأضاءها السياق ، قال الراغب : ـ رحمه الله فى تأويلها فى هذا المساق « أى من ابتغى أكثر مما بيناه ، وشرعناه ، من تعرض لمن يحرم التعرض له ، فقد تعدى طوره ، وخرق ستره(٢) » تأمل دقة الكلام الناظرة إلى نور السياق .

هذا .. وقد تأول العلماء (وراء) هنا بمعنى سوى(٣) وقال ابن عاشور : « وراء منصوب على المفعول به ، وأصل الوراء اسم الذى فى جهة الظهر ، ويطلق على الشىء الخارج عن الحد المحدود ، تشبيها للمتجاوز الشىء بشىء(٤) ولست أرى له موقعا ، وكونه تشبيها تكلف لما بيناه .

---

(١) الكشاف ٣ / ٣١٦ (٢) المفردات (ورى)

(٣) انظر بحر العلوم ٢ / ٤٠٨ ، القرطبى ٦ / ٤٦٤٠ ، مفاتيح الغيب ١١ / ٣٤٨ ، البيضاوى ٢ / ١٠٢ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ١٨٤

(٤) التحرير والتنوير ١٨ / ١٥

وما قيل فى آية « المؤمنون » يقال فى آية « المعارج » مع إبصار السياق فى الموضعين :

الموضع الرابع : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما — الأحزاب ٥٣) .

وقعت وراء فى سياق تعظيم حرمة أزواج النبي النبي - صلى الله عليه وسلم - وأزواج المؤمنين من بعد ما استشعر الكثير الإيذاء من التلاق والاختلاط كفاحا ، وقد وقع (من وراء حجاب) متعلقا بـ (فاسألوهن) الواقع جرابا لقوله (إذا سألتموهن . . .) المؤذن لتقييده بإذا بضرورة السؤال ، وقد جاء الجواب عن هذه الضرورة مقيدا (من وراء حجاب) وقد أضيفت « وراء » لـ (حجاب) والحجاب هو الستر كما قال أهل العلم(١) ، وفى وراء معنى الاستتار ، فتناسب المضاف والمضاف إليه ، وهو مما يوحى بأنه إذا ما كان الله - عز وعلا - آمرا السائل بالتزام بالسؤال من وراء حجاب ، فهو آمر المسؤولة بالتزام الاستتار ، وأن يجعل كل منهما الحجاب سترا بينه وبين الآخر سدا للذرائع ، وقطعا لكل سبيل إلى المعصية ، وتعظيما لحرمة العرض ، وإنما كانت « وراء » لتجعل كلا من السائل والمسؤول وراء الحجاب بالنسبة إلى الآخر ، ولن تفيد ذلك خلف

---

(١) انظر البيضاوى ٢ / ٢٥١ ، والصاوى ٣ / ٢٨٦ ، والفتوحات الإلهية ٣ / ٤٥٣

ولا غيرها ، فوق أنها لا تناسب المضاف إليه و (وراء) مما يجعل الكلام فى قوة قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ـ النور ٣٠-٣١) وما أوحت به « وراء » من الاستتار بلزم الطائعين لله ـ إذا ما انتفى الستر الحسى ـ بالستر الإيمانى ، انظر إلى قوله كاشفا العلة (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) لما كانت الرغبة منوطة بجنس الرجال أولا قدمهم . قال الفخر : « يعنى العين روزنة القلب فإذا لم تر العين لا يشتهى القلب ، أما إن رأت العين ، فقد يشتهى القلب ، وقد لا يشتهى فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر(١)» فكانت وراء وافية بحق مقام التشديد فى التحريم والنهى . بما أفادته من الإغراق فى الاستتار بالإضافة إلى الحجاب ملاءمة للسياق .

الموضع الخامس : قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ـ الحجرات ٤) .

السياق من أول السورة لتعظيم حضرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد بدأت السوررة بالنهى عن مطلق التقديم وذلك بحذف مفعول (لا تقدموا) ثم النهى عن رفع الصوت بحضرته . ثم الجهر معه بالقول . وجعل رفع العمل بتنفيذ ما مضى . وإحباطه فى عدم الإذعان له ، وبلغ التحذير الذروة بقوله : (وأنتم لا تشعرون) ومعلوم أن النهى ليس متوجها إلى ما يقارن رفع الصوت والجهر من الاستخفاف فذلك كفر كما أفاده أبو السعود(٢) وبعد الترهيب من الاخلال . رغب النظم فى الانتهاء بقوله : (إن الذين يغضون . . .) جاءت (وراء) فى الاية الواقعة فى هذا السياق . وهنا يتصاعد البيان القرآنى لتعظيم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقعت

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢ / ٦١٥

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٧ / ٥٨٤ وما بعدها .

(وراء) متعلقة بـ (ينادونك) وقد ذكر أهل العلم أنها بمعنى خلف(١) أو قدام ، لذا قد اتسع القول من قائل إن النداء من المسجد أمام الحجرات. أو خارجه خلف الحجرات . ولو قال القرآن : خلف أو قدام ، لكان النهى عن جهة واحدة ، وهو ما ينبو عنه السياق والسباق ، حيث يتنافى مع المساق من أول السورة ، المتظاهر على تعظيم حرمة حضرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالمقصود النهى عن ندائه ـ صل الله عليه وسلم ـ حيثما كان متواريا عن الأعين ، والجناية على المعنى بحذفها أو استبدالها كما ترى .

يقول جار الله : « والذى يقول : نادانى فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ، ولا دبرها ، ولكن أى قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص ، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أن النداء وقع منهم فى أدبار الحجرات أو فى وجوهها ، وإنما أنكر عليهم ، أنهم نادوه من البر والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة دون جهة(٢) » ولست أدرى كيف يجعل العلامة ابن عاشور(٣) (وراء) هنا مجازا فى الجهة المحجوبة ، منكرا ما تظاهرت به المعاجم وسياقات القرآن.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مقام المبالغة فى الكفر :

وذلك فى قوله تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ـ مبقرة ٩١) .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١٤ / ٣٦٥ ، القرطبى ٩ / ٦٣٥٩ ، بحر العلوم ٣ / ٢٦٢ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ١٧٦ ، حاشية الصاوى ٤ / ١٠٩

(٢) الكشاف ٣ / ٥٥٨

(٣) التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٢٦

سياق الآية على ما عرفت فى الموضع الأول من المقام الأول ، وهى تعد مهادا لنبذ اليهود العهود والكتاب ، وقد ذكر أهل العلم أن بما وراءه هنا بمعنى بما سواه أو بما بعده أو بما خلفه أو بالإنجيل والقرآن (١) وقد وقعت (بما وراءه) فى سياق يتظاهر على بيان كفر اليهود بما فى أيديهم ، فقد كان الأمر إليهم بالإيمان بكل منزل (آمنوا بما أنزل الله) « أى بكل ما أنزل الله ، والقائلون بالعموم احتجوا بهذه الآية على أن لفظه (ما) بمعنى الذى تفيد العموم ، قالوا : لأن الله تعالى أمرهم بأن يؤمنوا بما أنزل الله فلما آمنوا بالبعض دون البعض ذمهم على ذلك ، ولولا أن لفظة (ما) تفيد العموم لما حسن هذا الذم(٢) ، وكان جوابهم (نؤمن أنزل علينا) » ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم(٣) ، لأنه تعريض بأن ما سوى التوراة ليس منزلا ، ووقع قوله (ويكفرون بما وراءه) حالا من الضمير فى قالوا(٤) أى « قالوا ، ما قالوا وهم يكفرون بما عداه ، وليس المراد بجرد بيان أن إفراد إيمانهم بما أنزل عليهم حقيقة(٥) ، وقد نصب النظم الكريم القرائن الكاشفة لمستور قولهم ، فقوله : (وهو الحق مصدقا لما معهم) جملة وقعت حالا من فاعل يكفرون ، والمعنى : « قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، وهم يكفرون بالقرآن ، والحال أنه مصدق لما آمنوا به ، فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ، ومآله أنهم ادعوا الإيمان بالتوراة ، والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر بها(٦) ، وجاء قوله : (قل فلم تقتلون

---

(١) انظر بحر العلوم ١/ ١٣٧ ، ابن كثير ١ / ٦٢٥ ، والكشاف ١/٢٩٦ ، ٢٩٧ ، الصاوى على الجلالين ١ / ٤٥ ، فتح القدير ١ / ١١٣

(٢) مفاتيح الغيب ٢ / ٢٥٤

(٣) تفسير أبى السعود ١ / ٢٢٢ ، ٦٢٣

(٤) تفسير البيضاوى ١ / ٦٩

(٥) تفسير أبى السعود ١ / ٦٢٤

(٦) تفسير أبى السعود ١ / ٦٢٥

أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) ردا لادعائهم الإيمان ، أى قل لهم إلزاماً و بياناً لكفرهم بالتوراة التى ادعوا الإيمان بها(١) ، وقد تجاوبت (وراء) مع هذا السياق والمقام الذى يتظاهر على كشف مستور اليهود ، ولو وقع سواها موقعها ، لما لاءم السياق ولما وفى بحق المقام .

مقام المبالغة فى الجبن :

وقع ذلك فى قوله تعالى : (لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ـ الحشر ١٤) .

جاءت الآية ذروة البيان عن جبن اليهود وفرط رهبتهم . فقد جاء فى مفتتح السورة قوله : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ـ ٢) فإن شدة بأسهم ومنعتهم جعلت المسلمين يظنون أنهم لن ينتصروا ، وأبان النظم عن خصيصة فيهم (وظنوا أنهم . . . .) أى أن حصونهم تمنعهم من باس الله ، « وتغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إن ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتهم بها . واعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة بسببها(٢) » لكن الله أثبت فى قلوبهم الرعب ، ثم يتصاعد القرآن ببيانه ليكشف فرط رعبهم من المسلمين(لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ـ ١٣) أى رهبتهم فى السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله ؛ فإنهم كانوا يدعون عندهم رهبة عظيمة من الله تعالى(٣) ثم جاء قوله : « لا يقاتلونكم . . . » عليا على هذا الرعب ؛ بادئا بالأدنى منتهيا بالأعلى ، لما فى الثانى من التخصيص عن الأول ، إلا فى قرى محصنة » « أو من وراء جدر » أى

---

(١) القرطبى ١ / ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، والفتوحات الإلهية ١ / ٧٨

(٢) البيضاوى ٢/ ٤٦٤ (٣) أبو السعود ٨ / ١٨٠

« دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم(١)»، وقد وقعت (وراء) هنا كاشفة عن أنهم كانوا يستترون تمام الاستتار ، لذا لم يصلح فى هذا المقام والسياق أن يعبر « بخلف » لأن مدار البيان على اجتهادهم فى الاستتار ومما يعين عليه قراءة من وحد الجدر (جدار) ، وقول القرطبي « أى من خلف حيطان يستترون بها(٢) » .

تأمل كيف نص على الاستتار ، ثم إن المقام فى الكشف عن مستور قلوب اليهود ، وما فيها من فرط الجبن فوراء أولى به وألصق .

مقام المبالغة فى الظلم :

وقع ذلك فى قوله تعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (الكهف ٧٩) .

عندما تقوى القرائن لتأويل وراء بـ (أمام) يقوى التكلف لتأولها بـ (خلف) هذا ما جرى فى هذا الموضع ، والوجه الأول هو الأعلى عند المفسرين ، وذلك لأن هذا المعنى بالمقام ألصق ، ولأن ابن عباس وابن جبير اقرأ (وكان أمامهم) ، والذين تأولوها بـ (خلف) قالوا :إن رجوعهم كان عليه ، أو أنه كان من خلفهم زمنا عند من قال بأنها من الأضداد فى المواقيت والأزمان ، وتأولوا قراءة (أمامهم) بأن المراد بالظرف المكان(٣) والذى يتظاهر عليه السياق ، هو البيان عن مبالغة هذا الملك فى الظلم، والذى

---

(١) الكشاف ٤/٨٥ (٢) القرطبي ١٠/٧٥٨

(٣) انظر بحر العلوم ٢/٢٠٩ ، والكشاف ٢/٥٩٥ ، القرطبي ٦/٤٢٠٣ وما بعدها ، مفاتيح الغيب ١٠/٣٦٦ ، البيضاوى ٢/٢٢ ، الشهاب على البيضاوى ٦/١٢٧ ، ١٢٨ ، والفتوحات الإلهية ٣/٣٩ ، الصاوى ٣/٢٣ ، أبى السعود ٥/٧٣٤ ، التحرير والتنوير ١١/١٦ وما بعدها .

من شيمته ـ كما يفيده التركيب ـ شدة القسوة واتساع السطوة (فكانت لمساكين يعملون فى البحر) (يأخذ كل سفينة غصبا) وهو مما يعلى وجه الحكمة فى صنيع الخضر ـ عليه السلام ـ ألا تراه حذف الصفة إشعارا بالمبالغة فى الظلم، وهذا القيد (غصبا) مما يعين عليه أيضاً .

والتعبير بوراء هنا لاءم السياق ووفى بالمقام ، إذ هى تفيد أنه كان متوارياً عنهم راصدا لهم ، وكانوا فى غفلة منه ، لعدم معرفتهم بظلمه وغشمه ، وقد ذكر البقاعى فى هذا الموضع كلاما يظهر فيه نور السياق فى وراء قال رحمه الله : « وكان وراءهم أى أمامهم ، ولعله عبر بلفظ (وراء) كناية عن الإحاطة بنفوذ الأمر فى كل وجهة وارتهم وواروها ، وفسره الحرالى فى سورة البقرة : بأنه وراءهم فى غيبة عن عملهم ، وإن كان أمامهم فى وجهتهم ؛ لأنه فسر الوراء بما لا يناله الحس ، ولا العلم حيثما كان من المكان قال: فربما اجتمع أن يكون الشىء وراء من حيث إنه لا يعلم ، ويكون أماما فى المكان(١) ، وهو عين ما فهمناه من أن الأمام المستورة وراء والخلف المستور وراء حسا ومعنى ، ولو وقعت خلف أو قدام هنا لنبت عن السياق ، وقصرت عن المقام .

مقام التحذير :

ومع ذلك فى قوله تعالى : (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » (النساء ١٠٢) .

المقام مقـــام حرب ، وقد وردت « وراء » متعلقة بقوله تعالى :

---

(١) نظم الدور فى تناسب الآيات والسور ١١٩/١٢

(فليكونوا) وهو أمر وارد على لا حب الإرشاد والتوجيه ، إبلاغا فى أخذ الحذر ، واقترانه بالفاء المؤذنة بسرعة التعقيب مما يعلى هذا ، وقد دخلت من الابتدائية على وراء ، إلماعا إلى التصاق الحارسين بظهور المصلين ، وما فى وراء من معنى الاستتار يوحى بموازاة المصلين بالحراسة ، ولو قال من خلفكم لما تساوق مع الكلام ، ولما وفى بالمقام ، والظاهر أن القرآن يصعد بيانه فى أخذ الحذر تأمل كيف قال قبل وراء (وليأخذوا أسلحتهم) وقال بعدها (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) وذلك لأن العدو لم ينتبه إلى أنهم يصلون فى مبتدأ الصلاة ، وفى إكمالها تنبه بلا ريب ، فترصدهم على ما ذكر الفخر ـ رحمه الله(١) ـ ثم تأمل ما أبان به القرآن الكريم عن شدة تربص العدو بالمؤمنين والتى يلائمها شدة التحذير (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) وسياق (وراء) كما ترى ، والأعلى فى مقام أخذ الحذر هو وراء لا خلف إلماعا إلى شدة الانتباه ، وإبلاغا فى أخذ الحذر ، وتجد العلماء يذكرون أن (من ورائكم) هنا أى (يحرسونكم(٢)) وقد أبانت وراء عن وجه الحراسة ، وجعلت المصلين غيبا إذا ما نظر العدو إليهم ، لما عليه الحارسون من تمام سترهم وحماية ظهورهم .

مقام الرغبة :

قال تعالى : (وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ـ مريم ٥ ، ٦)

اتفق المفسرون أن (من ورائى) هنا بمعنى (من بعدى) ، ولا يمكن

(١) انظر مفاتيح الغيب ٥ / ٤٢٣

(٢) انظر الكشاف ١ / ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، البيضاوى ١ / ٢٤٠

أن تكون متعلقة بخفت لفساد المعنى ، فهى إما متعلقة بمحذوف ، والتقدير : خفت فعل الموالى من ورائى ، وإما بمعنى الولاية فى الموالى ، والتقدير : خفت الذين يلون الأمر من ورائى(١) ، وهو قائم على أن الأنبياء لا يخشون إلا الله ، والسياق للرغبة بإظهار التضرع بين يديها كما يتظاهر عليه سياق السورة . وما من ريب فى أن خوفه أعلى أسباب الطلب ، وأن الخوف من أجل وراثة العلم والنبوة ، لا من أجل وراثة المال كما هو لائق بمقام النبوة ، وقد كشفت من ورائى أن خوفه من المستور أمامه ، كان قائما على ما رآه فى المنظور أمامه ، وهو ما تؤيده القراءة الأخرى بتشديد (خفت) وإن كان (ورائى) بمعنى خلفى أو بعدى فهو متعلق بالموالى والمعنى . أنهم قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين ، وأنه سأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولى يرزقه ، وإن كان ورائى بمعنى (قدامى) فهو متعلق بالفعل (خفت) والمعنى أنهم خفوا ، ودرجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد(٢) ، والقراءتان متظاهرتان على بيان المعنى ، ويكون المعنى عليهما ، وإنى خفت انعدام الموالى من بعدى لما رأيت خفتهم قدامى ، وذلك أدعى لطلب المولى ، وألصق بالرغبة ، لذا كانت ألصق بها من الأسباب السابقة عليها ، ثم إن التعبير بواء نص فى أنه لا مولى فى وجوده وحضرته ، وإنما يكون ذلك بعد وفاته ، وذلك غير (من بعد) فليست نصاً فى هذا المعنى ، ثم إن (وراء) تجرى على لا حسب مقام النبوة فى خوفهم على دينى الله حتى بعد موتهم ، ووراء نص فى الاستتار ، فيكون ذلك بيانا عن خوفهم على دين الله فى الزمان المنظور والزمان المستور ، ولا يفى سواها بهذا الغرض وشىء آخر هو أن الأسباب المسوقة بين

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٥٠٢

(٢) انظر مفاتيح الغيب ١٠ / ٣٩٨ وما بعدها وقد رد القرطبى هذه القراءة انظرة ٦ / ٤٢٤٩

يدى الرغبة من أول السورة ، تدور بين سبب باطن وسبب ظاهر تأمل (رب إنى وهن العظم منى) وهو سبب باطن (واشتعل الرأس شيبا) وهو سبب ظاهر ، (ولم أكن بدعائك رب شقيا) وهو سبب ظاهر ، (وإنى خفت الموالى من ورائى) وهو سبب باطن (وكانت امرأتى عاقراً) وهو سبب ظاهر ، فجاء بوراء فى السبب المستتر ، لأنه كان فى غيهب الغيب بالنسبة إلى سيدنا زكريا عليه السلام . فهو خوف من مستور أمامه .

مقام تأكيد البشارة :

قال تعالى : (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب - هود ٧١) .

وقعت هذه البشارة فى ثلاثة مواضع ، هذا الموضع والذى فى الحجر قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم - ٥٣) وفى الذاريات (قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم - ٢٨) ، فجاءت البشارة هنا ذاكرة اسم الولد ، واسم ولد الولد ، لذا عقب النظم البشارة فى سورة هو بقوله : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط - هود ٧٦) . وليست مذكورة فى الموضعين الآخرين ، وهو المتناسب مع سياق تأكيد البشارة ، واختصت الحجر بتعجب سيدنا إبراهيم من البشارة ، واختصت الذاريات بالإخبار عن زوجه بأنها صكت وجهها ، وبرغم تأكيد البشارة هنا وغرابتها ، فإنها لم تصك وجهها ، بل ولم تذكر السبب الأعلى فى عدم الإنجاب كما فى الذاريات (وقالت عجوز عقيم) وفى هود (أألد وأنا عجوز) ، وهو مما يؤيد تفسير الضحك بالحيض ، فيما روى عن مجاهد وعكرمة ثم إن النص على ذهاب الروع هنا معلم دال على تأكيد البشارة ، والذى ينبغى بيانه فى هذا المقام أن الأكثرين من أهل العلم على أن (من وراء) بمعنى (من بعيد) وفسرها بعضهم بأن معناها ولد الولد ، إستنادا إلى ماروى عن الشعبى وابن عباس فى قول الأخير لرجل معه ابن ابنه هذا ابنك من وراء ، وهو

بعيد فى التعسف عند الفخر ، والذى أبصره أنهم أرادوا البيان عن تأكيد البشارة لإبراهيم عليه السلام ـ فى أنه سيعيش ويرى ولد ولده ، أما فضل وراء فى هذا الموضع ، فإنها جعلت « إسحق » أمام سيدنا إبراهيم المنظور ، وجعلت يعقوب أمامه المستور كأن التبشير بوجود إسحق أمر فرغ منه كأنه منظور ، يستر أمامه المستور ، والذى يوضح هذا أنه قد قرىء برفع يعقوب ، والمعنى : ويكون من وراء إسحق يعقوب مولود أو موجود ، أو ثبت لها من وراء إسحق يعقوب ، أو يكون فى موضع الحال ؛ والمعنى : بشروها بإسحق مقابلا له يعقوب ، فيكون كل من النبيين وراء بالنسبة إلى الآخر ، وبكل المعانى فإسحق عليه السلام يصبح كالأمام المنظور بالنسبة لأبيه ، ويعقوب أمام مستور بالنسبة لجده ، وقر الفتح (يعقوب) تؤيد هذا أيضا فالمعنى : فبشرنا من وراء إسحق يعقوب ، أو ووهبنا من وراء إسحق يعقوب ، فالتعبير بوراء أكد على التبشير بإسحق ومكن فى التبشير بيعقوب ، فقد جعلتهما وراء متقابلين على ما عرفت ، وذلك هو الأعلى فى مقام تأكيد البشارة ؛ إذا ما أبصرنا مواضعها فى الذكر الحكيم ، وذلك لأن الاستتار لا يغادر معنى وراء ، وهذا غير من بعد لأنها لا تؤكد البشارة بالنبيين .

مقام تنزيه الذات العلية عن المكان والجهة :

قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ـ الشورى ٥١) .

السورة سورة الوحى ، وهذه الآية تنادى على قوله سبحانه فى أول السورة (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ـ الشورى ٣) وبعد الآية محل الشاهد (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ـ ٥٢) فالآية محل الشاهد كاشفة عن طرائق هذا الوحى المذكور

فى أول السورة وفى آخرها ، و (من وراء) تتعلق بقوله سبحانه (يكلمه) وقد زعم البعض أن فى الآية نصاً على الجهة ، وقد اشتغل المفسرون بالرد على هؤلاء البعض ، والخطب هين ، لأن القرآن لو قال من خلف حجاب ، أو من أمام حجاب ، لكان لزعمهم وجه ، لكنه لما عبر بوراء ؛ وهى هنا - فيما أرى - تدل على الجهتين معاً ؛ فالله فى كل مكان وكل جهة - سبحانه وتعالى ؛ فالوراء كل خلف أو قدام استتر عنك ؛ والمراد من الحجاب لازمه ؛ وهو عدم الرؤية ؛ والحجاب وصف العبد لا وصف الرب(١) » وقد ذكر أهل العلم أن موسى - عليه السلام - سمع صوت الله من كل ناحية عندما كلمه ؛ وكان الكلام فى كل ذلك من وراء حجاب ؛ فلو وقع هنا خلف أو قدام ؛ لتنافى مع الكمال ؛ واقتضى المكان والجهة ؛ وربما يزيدك بصرا تذكرك ما عرض عليك فى سورة الحجرات ؛ مع إبصارك أن الحجرة محيطة بالنبى - صلى الله عليه وسلم - أما هنا فالحجاب محيط بالعبد ؛ لأن الله سبحانه يحيط ولا يحاط به ؛ فهو لا يكلم بشراً إلا مستتراً عنه ؛ والملائم لمقام التنزيه ألا تعد الآية من التشبيه كما قال الزمخشرى « أى كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه ؛ وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ، ولا يرى شخصه(٢) فإنه من فساد التأويل ؛ وقد روى « أن موسى - عليه السلام - لما شاهد النور الساطع من الشجرة إلى السماء ؛ وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه ؛ فنودى يا موسى ؟ قال : لبيك إنى أسمع صوتك ؛ ولا أراك فأين أنت ؟ قال: أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك ، وأقرب إليك منك ؛ إن ابليس

---

(١) انظر فى هذه الوجوه الإعرابية الكشاف ٢ / ٢٨١ ، مفاتيح الغيب ٨ / ٥٧١ القرطبى ٤ / ٣٣٨٧ الفتوحا الإلهية ٢ / ٤١٠ ، الصاوى ٢ / ٢٢٢ ، التحرير والتنوير ١٢ / ١١٩ ، ١٢٠

(٢) الصاوى على الجلالين ٤ / ٥٤

(٣) الكشاف ٣ / ٤٧٥

أخطر ببالك هذا الشك ، وقال : ما يدريك أنك تسمع كلام الله ؟ فقال : لأنى أسمعه من فوق ومن تحتى ومن خلفى وعن يمينى ، وعن شمالى ، كما أسمعه من قدامى ، فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين(١) ، وما يقال فى آية الأحزاب غير ما يقال هنا ، فالسياق غير السياق ، والمقام غير المقام ، فالأولى فى مقام توجيه المخلوقين ، والتى هنا فى المقام حديث الخالق عن نفسه .

وبعد . . .

فهذا ما قبسناه من نور وراء فى سياقتهـــا فى الذكر الحكيم ، وقد أبصرناها ـ فى مقامات تـكشف عوار اليهود ، وغفلة المعرضين ، ومقامات تبكيت الضالين . وتعظيم حرمة سيد المرسلين ، وتنزيه رب العالمين . ووجدنا لها إيحاء يحدو بالمخلصين نحو يفاع الطاعة ـ فى مقامات التشديد فى التحريم والنهى ، وقد حاولنا الـكشف عن وفائها بحق المقام والسياق ملتزمين فى كل ذلك الإيجاز ، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠ / ٥٤٢

أهم مصادر البحث

القرآن الكريم :

١ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود بهامش الرازى بدون تاريخ .

٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى البيضاوى ط الحلبى ١٣٨٨هـ

٣ ـ بحر العلوم لأبى الليث السمرقندى ط دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ

٤ ـ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية ١٩٨٤ م

٥ ـ تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ط عيسى الحلبى .

٦ ـ حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير القاضى البيضاوى ط بولاق بدون تاريخ .

٧ ـ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ط دار الفكر ١٣٩٧ هـ

٨ ـ الخصائص لابن جنى ت الشيخ / محمد على النجار ط الهيئة العامة للكتاب ١٤٠٨ هـ .

٩ ـ دراسات لأسلوب القرآن د / محمد الخالق عضيمة ط حسان .

١٠ ـ صورة الأمر والنهى فى الذكر الحكيم د / محمود توفيق محمد سعد ط الأمانة ١٤١٣ هـ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

١١ — علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم دراسة بلاغية (نظرية - تطبيقية) .
مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة إشراف (د / محمد أبو موسى ، د / محمد جلال الذهبى) للكاتب د / إبراهيم صلاح الهدهد .

١٢ — الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للشيخ الجمل ط عيسى الحلبى .

١٣ — فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى ط دار المعرفة بدون تاريخ .

١٤ — فقه اللغة وسر العربية للثعالبى ط بيروت بدون تاريخ .

١٥ — القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادى ط بيروت .

١٦ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى ط مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ .

١٧ — لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .

١٨ — المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ت محمد جاد المولى وآخرين ط بيروت ١٩٨٦ م .

١٩ — المصباح المنير للفيومى ط المكتبة العلمية .

٢٠ — مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للفخر الرازى ط دار الغد العربى .

٢١ — المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ت كيلانى ط الحلبى ١٣٨١ هـ .

٢٢ ـــ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى للآمدى ت / السيد صقر
ط دار المعارف الرابعة .

٢٣ ـــ الموافقات فى أصول الشريعة ، ت / الشيخ عبد الله دراز
ط المكتبة التجارية .

٢٤ ـــ مقدمة فى فقه اللغة العربية واللغات السامية د / عبد الفتاح
البركاوى ١٤١٤ هـ .

٢٥ ـــ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى
ط الهند ١٣٨٩ هـ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

محتـــويات البحث

الموضـــوع	الصفحـة
توطئـــة	١٦٩
دلالة وراء عند اللغويين والمفسرين .	١٧١
مواضع وراء فى الذكر الحكيم	١٧٧
مقام الإعراض والغفلة	١٧٧
مقام التهديد والوعيد	١٨٦
مقام التحسير والتبكيت	١٩٧
مقام التشديد فى التحريم والنهى	٢٠١
مقام المبالغة فى الكفر	٢٠٦
مقام المبالغة فى الجبن	٢٠٨
مقام المبالغة فى الظلم	٢٠٩
مقام التحذير	٢١٠
مقام الرغبة	٢١١
مقام تأكيد البشارة	٢١٣
مقام تنزيه الذات العلية عن المكان والجهة	٢١٤
أهم مصادر البحث	٢١٧

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی